العِرْسَة

الغرباء، يوم السبت، قليلو البخت. بخطوة واحدة على أعتاب البلدة يعرفون أن النور قد حل؛ غيطان غلة، قرص شمس، فطير مشلتت، والكحل ممزوج بالفلفل والزيتون. "بركاتك يا سيدي خالد". البلدة بأكملها تدق الأهـوان، والغرباء يصطفون على جفنها في شـارع طويل يصل إلى مقام الشـيخ ويلتف حول الجبانة. يعرضون الغوايش والحناطير البلاستيكية، الحمص والحلاوة والطراطير. يصطفون كغيرهم من أبناء البلدة بالأكواز الملونة أمام أواني النابت الكبيرة، يشربون الشـاي الأحمر وسط الذاكرين والزوار. وفي السُرادِقات يعلقون فروع اللؤلؤ، يلمعون البنادق والأباريق، المراجيـح تهتز بخفة مع خصور النسـاء في البيوت، وفي البيت المطل على شـجرة الجميز، تصفق البنات لحميـدة، البهية، وهي ترقص على أطراف أصابعها، مع نقرة الطبلة المشـدودة على النار. إيشارب من الحرير يطوق

خصرها، وقرصات في ركبتها جعلت أمها تتأمل جمالها من بعيدٍ، بينما الجدة تنهر حفيدتها، لتمنع نظرات البنات عن جسدها، صدرها الفائر وقدميها الشهيتين. "الصلاة على الزين".

دخلت حميدة غرفتها، قفلت الشبابيك والستائر، ناولتها أمها طبقًا مملوء بتراب الموقد، مكحلة صغيرة وريشة حمامة. في البداية كانت خائفة، مثل كل مرة، تأففت. قالت: "لماذا ينبت الشعر هنا؟". تستغفر ربها. تتذكر كلمات أمها: "مع أول شعرة يسير النمل تحت جلدك، ولن تشعري بشيء". تتشجع. تنتزع شعيراتها السوداء، ثم تدهن الكريم. تقف أمام المرآة عارية، تمسك الريشة وتمررها على شفتيها، تضعها في المكحلة، تلاحظ حلاوة رقبتها الطويلة، حلمتيها البنيتين، فرجها، وساقيها البيضاوين. أشبعت عينيها بجسدها وأخرجت قميص نوم من كرتونة تحت السرير. كان أبيض، وكانت عذراء. صوت الذاكرين يطوف حول البيت، وصوت أمها أشاط أذنيها؛ على الحلوة أن تذهب إلى شادر الذكر لتقدم النذر السنوي. ارتدت ملابسها، خرجت تحمل الشاي والسكر، وكوز بلاستيكي أزرق، ومشت جوار جدتها، وسط الغرباء والمولد.

ضجيج الشارع الترابي، وظل كبير يتخطى السُرادِقات والفرشات، ظل عرسة، يأكل السيارات والحناطير البلاستيكية، يشم أكواز البطاطا المشوية، يملس على تلال الحمص والحلاوة، بأذن عريضة تلتقط خطوات حميدة، ومخالب مدببة تتبعها، تترقبها وهي تدخل مقام سيدي خالد. أعين

صغيرة سوداء وسط الذاكرين ترصدها بالكوز الأزرق الممتلئ بالنابت، تقترب منها وتمص الهواء من حلقها، فتقع على الأرض وسـط الضجيج والذكـر، وصراخ جدتها، وحبات النابـت المختلطة بالطين. تجزع الأم لما تراها برمش منحول، وعين ضاع كحلها. ذراعاها متدليان، ورأسها نائمة في أحضان شـاب يحملها، وفي الخلف الشـبان والنسـاء يشيعونها، وظل العرسة يحوم حولهم.

سرير من الصفيح تتمدد أعلاه حميدة، جسدها شاحب ومبقع، آثار حبل على عنقها، عروق زرقاء نافرة من جفنها وخربشات على ظهر يدها. أمام عينيها الشاردتين مرآة ملصوقة بالجرائد، ودولاب يحمل أوزارًا من الكراتين والخزف، حيطان الغرفة زرقاء ملطخة بالناموس، وعروق السقف كافور أبيض. الأم تطل عليها كل حينٍ، بطرف ملعقة تبلل شفتيها بالماء والسكر. والليل على وسادتها، رضيع لا يشبع، بأذنين مشمعتين وعينين مطموستين. حميدة ترقد في الزرقة. لا تستطيع أن تهز طولها، لا تحرك يدًا أو ساقًا. ترى نفسـها في المرآة عارية رغم الجرائد، روح خفيفة تلبسـها وتعدو داخلها، فتعفر صدرها بالغبار وتسكن ذرات التراب حلقها. تريد أن ترشف الماء، تتعرق، جسدها يبتل. تشـعر بأنفاسٍ دافئة على وجهها وشفتيها، صوت يأمرها أن تفتح ساقيها، قرْصة في حلمتيها تجعلها تنتصبان. ينخسها شيء، يوجعها، تصرخ، تريد أن تصرخ، تدخل أمها لتطمئن عليها فتجدها مبتلة، ساقيها منفرجين وبقعة دم أسفلها. تضرب الأم صدرها. صوت التعديد

طغي على الذكر، التفت العائلة حول حميدة، اكتفى الأب بنظرة جامدة إلى بقعة الدم، وحميدة ترشف الماء. ترقيها جدتها "عيني عليكِ باردة"، والعين فلقت الحجر، العين عنيدة.

في الصباح، اشترت الأم الشابة والفاسوخ، دخلت على حميدة مع الجدة وجارة عجوز، جلسن على الأرض حول قَصعةٍ من نحاس، استلقت حميدة في حجر أمها وظِل العرسة في المرآة. قامت العجوز برقيتها فانفرجت الأشداق. صنعت العجوز عروسًا من ورقٍ، وبإبرة منجّد نخستها "من عيون الأهل والناس"، عيون المولد والأغراب، "ومن كل عين شافتك ولم تصلِ على النبي". لم تترك الجدة مكانًا في العروس دون نخسة، وعلى نار القصعة أشعلت الشابة والفاسوخ، ورمت العروس وهي تتمتم بالأدعية. أعين الأم والجدة لا تفارقان العروس المشتعلة وهي تلتف حول الشابة والفاسوخ، تتكور ويذوب رفاتها على هيئة عين. تصعد روحها مع الأبخرة، والأم لا تطيق الانتظار، والعجوزان تقرفصان حول القصعة بجلاليب سوداء سفرتها من الحرير اللامع. وأخيرًا تكشف الجدة عن ساق حميدة، بينما تخرج العجوز الشابة والفاسوخ التي بدت مثل بالون مصفود، مثل عين سوداء لا تزال تحدق، ويلمع بؤبؤها. تدهسها حميدة بكعبها، وتدغدغها الأم بغل ثم تلم الرفات في سرة سوداء، تعطيها لصغيرها ليرميها في المولد، وتأمره ألا يكلم إنسيًا أو جنيًّا في الطريق، أو في المولد، قبل أن يتخلص منها.

مشى الصبي في المولد. الناس يطوحون الذكر للعابرين، يؤنسون الأموات

والجديان على أسـوار الجبانة. نساء يشترين الحلي لبناتهن، وطراطير تزين رؤوس الأطفال والشيوخ، وبندقية تبحث عن قناص. الصبي الذي حمل الأمانة يجيد النِشَان، يسـير بخطى سريعة، يبحث عن مفترق طرق يبتلع السرة السوداء. الصبي التزم بالعهد ولم يكلم إنسيًا ولا جنيًا، وكلم تلك العجوز.

كانت تتعقب سُرَّته. تسير وسط الجموع بعباءة سوداء، وحلق في أنفها. رأته عندما أسقط السرة بين فكي ظل العرسة الوخيم، ومشى متباطئًا جوار أتلال الحمص والحـلاوة، وانتظرت الصبي. اقتنص صورة من صاحب النشـان، وعاد باهتًا إلى البيـت، والعجوز دَوَّادة بدوية تتطوح مع صوت الشيخ ياسين التهامي:

"قَوْلِ المُبَشِّرِ بعد اليأس بالفرَجِ
لكَ البِشارةُ فاخْلَعْ ما عليكَ.

حميدة ما زالت شاردة، والنسوان يجلسن على حصير أمام البيت مع أبيها. الدَوَّادة تتعكز على الصبي، رأتها النسوة من بعيد فعرفن أنها البشارة، قالت: "بنت بنوت والدود سكنها". الأب تورد لمّا سمع أول الخبر، والدَوَّادة تعرف الطريق لغرفة الصبية. أجلسـتها عـلى الأرض في وضع القرفصاء وقالت إن الأرض أمُّنا. كشفت رأسها، ثم ملّست أسفل ظهرها إلى عنقها، ومن صدرها إلى رأسـها. اقتلعت شعرة سوداء من شعر حميدة، طقطقت

كالملح. شـدت أذنيها، وأمرت الدود أن يخرج من فمها وأنفها، فسال في كفيها، وحميدة.. حميـدة تحشرج صوتها واحتقن وجهها، ضربتها الدوادة على ظهرها، فقفزت عرسة بدينة من فمها وهربت بعيدًا. ظل العرسة على الجدران سرق أعين النسـوة لوهلة، ولّما التفتن إلى حميدة وجدْنها تزبل في غمضة عين. صار لحمها الشـهي عظمًا، وشـعرها الطويل تساقط، شاب سواده، وانفضّ المولد..